الأمراض والأوضاع الصحية في السودان القديم من خلال المكتشفات الأثرية

أ.د. عبدالرحيم محمد خبير

قسم الآثار- كلية العلوم الإنسانية
جامعة بحري

مستخلص :

يمدنا هذا البحث بتقرير عن الدور الذى اضطلع به علم الآثار ونظيره الباليوباثولوجي(Paleopathology) في تسليط الأضواء على الأمراض والأوضاع الصحية في السودان القديم منذ آلاف السنين . ويشير الدليل الآثاري المتوفر حالياً أن قدماء السودانيين منذ أزمان مبكرة (دولة كرمة ، 2500-1500 ق.م ، عهد الدولة الفرعونية الحديثة : 1550-1070 ق.م ، دولة مروي - 900 ق.م – 350م والممالك المسيحية : 543- 1504م)،كانوا يعانون من العديد من الأمراض والأوضاع الصحية السيئة المنتشرة في بيئاتهم الثقافية والحيوية والطبيعية، وتشير نتائج أبحاث الأمراض القديمة الى معدل عالٍ للوفيات وان أغلب سكان السودان القديم كانوا يموتون عند سن البلوغ وفي أعمار مبكرة .

Abstract:

The present research gives an account pertinent to the role played by Archaeology and Paleopathology in shedding lights on diseases and health conditions prevailing in Sudan thousand years ago. The archaeological evidence hitherto shows that ancient Sudanese during early times (Kermastate: 25001500- B.C., theModern Pharaonic state: 15501070-B.C., Meroitic state: 900 B.C- A.D350 and the Christian era :5431504- A.D) suffered from a series of diseases andunhealthycircumstances encountered in their cultural, physical and biological environments. The mortality rate was high and most people succumbed to death by middle- adulthood.

مقدمة:

علم الأمراض القديم (الباليوباثولوجي): Paleopathology

إهتم علماء الآثار بالصحة والأمراض منذ بواكير العمل الآثاري في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وظهر ما عرف بعلم الأمراض القديمة (Paleopathology). وهو العلم الذي يهتم بدراسة الأمراض القديمة وتاريخها. ويدخل هذا العلم في كثير من التخصصات الأخرى مثل علم الآثار والعلوم الطبيعية وغيرها. ويهتم علم الباليوباثولوجي بشكل أساسي بدراسة الأمراض التي تؤثر على الهياكل العظمية للإنسان القديم لأن العظم هو أكبر مصدر للمعلومات والبيانات الخاصة بالأمراض القديمة (Miller et al1996:221).ويعتمد علم الأمراض القديمة على رصد الأنسجة الصلبة، كالعظام، والأسنان، والأنسجة، ويستعمل التحليل المجهري والإشعاعي للتشخيص. وبذا يمكن دراسة أمراض الأفراد ومن ثم صحة المجموعة ككل. (الحاكم و بونيه 1997: 101).ويري الباحث جونز Jones أن الباليوباثولوجي علم يعني بدراسة الصحة والأمراض للإنسان والحيوان من خلال البقايا الآثرية. بيد أن جانسنس يؤكد أنه علم يدرس الأمراض في الفترة التي سبقت معرفة الإنسان للكتابة (Prehistory)(أنظر أدناه).

أهداف علم الأمراض القديمة - الباليوباثولوجي:

تتلخص هذه الأهداف (Miller et al 1996: 220) في الآتي:

- تشخيص تأثير أمراض معينة في البقايا الإنسانية الأثرية.
- تحليل وتفسير مختلف الأمراض للمجموعات السكانية في مختلف العصور والأمكنة.
- تصنيف التفاعلات التطورية بين الإنسان والأمراض.
- تمدنا البقايا البيولوجية للسكان القدماء بمعلومات عن العديد من الأسئلة الخاصة بالجوانب الفيزيقية والثقافية بعلم الأجناس.

ج. مناهج دراسة الأمراض القديمة:

ظل علماء الآثار لسنوات عديدة يرمون ببقايا الهياكل العظمية الإنسانية والحيوانية التي يعثرون عليها في الحفريات الآثارية ويركزون كل إهتمامهم على المعثورات الحضارية.ولم يدر بخلدهم أن هذه المواد البيولوجية (بقايا عظمية إنسانية وحيوانية)، تمدنا بمعلومات ذات قيمة لا تقدر بثمن تعيننا ليس فقط على معرفة الكائنات البيولوجية بل أيضاً لتفسير العديد من التغيرات الحضارية التي أثرت على هذه الموجودات الحضارية مركز إهتمامهم الأساسي (Disi et al 1983: 515). وبالإمكان دراسة الأمراض القديمة من خلال بعض المناهج منها النقوش والكتابات الصخرية، سيما وأن الإنسان حاول التعبير عن مشاكله وأحواله بأساليب عديدة وعكس لنا أسلوب حياته وما أصابه من أمراض عن طريق النحت والرسومات الصخرية في عصور ما قبل التاريخ. ومن خلال التقنيات الآثارية بإمكاننا مشاهدة العظام التي قد يظهر فيها آثار كسور أو التهابات أو تشوهات وإختلفت المعلومات الطبية عند الشعوب بإختلاف التجارب، وتنوع البيئات والأمراض (اللبدي 2003: 1).

الصحة والأمراض في السودان القديم:

كشفت التنقيبات الآثارية وعلم الأمراض القديمة (الباليوباثولوجي) معلومات ثّرة عن أوضاع الصحة والأمراض في السودان منذ آجال موغلة في القدم. ونورد أدناه نماذجاً لبعض الأمراض التي كانت سائدة في السودان القديم خلال أحقاب حضارية متلاحقة.

الأمراض في السودان القديم:

مملكة كوش الأولى - كرمة (2500- 1500 ق. م):

وهي تمثل أول دولة في السودان القديم وأفريقيا جنوب الصحراء الكبري.

الأمراض البكتيرية (السل): عثر على مثالين للإصابة بالسل خلال فترة كرمة القديمة (2500 – 2050 ق. م) (Welsby 2001: 494).

الأمراض الأيضية (الأنيميا): ظهرت علامة هذا المرض على ثلاثة من أفراد راشدين في فترتي كرمة القديمة (2500- 2025 ق.) والوسطى (2050 – 1750 ق. م) على شكل ثقوب في الجمجمة مطابقة لحالة الأنيميا المكتسبة (شوقي 2002: 45).

الأمراض الصناعية (الكسور): إنتشرت أمراض الكسور في فترتي كرمة القديمة والوسطى أكثر من أي فترة أخرى مما جعل بعض الدارسين يميل إلي رأي مفاده أن العنف في هذه الفترة قد إزداد بصورة أكثر من أي فترة أخري.

أمراض الأسنان: وتمثلت في الضعف الشديد على مينا الأسنان لدي الكثير من الأفراد (100 هيكلاً) وهو ناتج عن إضطرابات التكوين وإرتبط بمشاكل التغذية والأمراض مثل التسوس والخراج

وجذور الأسنان بجانب التكلس وإلتهاب اللثة بدرجة كبيرة مما يبرر وجود الخراج كعامل أساسي لها (الحاكم وبونيه 1997: 103 -104)(لوحات:1،3).

مملكة مروي (900 ق. م - 350 م):

وهي تمثل مملكة كوش الثانية. وإمتدت في بعض فترات التاريخ لتحكم وادي النيل طراً. ونورد أدناه نماذجاً للأمراض التي كانت سائدة في هذه المملكة:

الأمراض البكتيرية (السل): وجدت حالات للإصابة بمرض السل في موقعي عكاشة ومسيمينا بأقصى شمال السودان ولكنها كانت قليلة (شوقي 2002: 39).

التشوهات الخلقية: عثر على زوائد عظمية في السلسلة الفقرية لبعض الأفراد في موقع قباتي الذي يقع في الطريق بين البجراوية وعطبرة (Filer 2002: 13-20)(لوحة:4).

الأمراض الصناعية (كسور العظام): وجدت العديد من الأدلة على كسور العظام في المواقع المروية. ففي موقع عمارة غرب والكوة بشمال البلاد أشارت التحاليل إلي كسور عظمية كانت نتاج حوادث مختلفة وليست نتاج عنف بدني أو معارك حربية (سبنسر وآخرون 2014: 58)(لوحة:2).

عصر الممالك المسيحية (543-1504م):

الأمراض البكتيرية (السل): إنتشر هذا المرض في العديد من مستوطنات الممالك المسيحية(نوباتيا والمغرة وعلوة) وبخاصة موقع فرس (مملكة نوباتيا) بأقصى شمال السودان مما يشي بأحوال إقتصادية وصحية سيئة للغاية (شوقي 2002: 60).

الأمراض الصناعية (كسور العظام): أمراض المفاصل وتكسرالزوائد العظمية والناتج عن الإصابة بارتفاق المفاصل في المجموعات المروية وصلت نسبة الإصابة فيه إلي 8% في الفترة المروية وفي فترة ما بعد مروي إرتفعت النسبة إلي 10.3% (المرجع نفسه: 56).

أمراض أخرى (الأورام): تم التعرف في هذه الفترة على حالتين فقط لبداية ورم في الجمجمة لبعض الأفراد (Strouhal 1998:1- 7).

الأوضاع الصحية في السودان القديم: نماذج مختارة من عهد الدولة الفرعونية الحديثة ومملكة مروي:

لم ترفدنا الأدبيات الآثارية بصورة متكاملة عن الأوضاع الصحية في السودان القديم منذ آجال موغلة في القدم لقلة الدراسات العلمية في هذا المجال. وسنورد أدناه نماذجاً للأوضاع الصحية التي كانت سائدة في فترة الدولة الفرعونية المصرية الحديثة إبان نفوذها على السودان (1550-1070ق.م) وفي عهد مملكة كوش الثانية (مروي، 900 ق. م- 350م) من خلال التقارير العلمية للحفريات الآثارية لمستوطنتي عمارة غرب شمال الشلال الثالث والكوة جنوبه.

الأوضاع الصحية لسكان عمارة غرب:

أبانت دراسة الهياكل العظمية لـ (250) فرداً من سكان عمارة غرب أن المنية قد وافتهم قبل بلوغ سن الـ 35 عاماً. ويوضح ذلك أن البيئة المحيطة بهم لم تكن صحية البتة. ولم يعرف على وجه الدقة سبب تلك الوفيات المبكرة. غير أن قرب مستوطنة «عمارة غرب» بالقرب من شاطئ النيل يجعل تعرض سكانها لأوبئة مثل البلهارسيا والملاريا هو الأكثر إحتمالاً. كما وأن التواجد القريب من الحيوانات – في المنازل والممرات والحقول – كان له أثر كبير في تسهيل إنتشار الأمراض مثل الدرن وأنواع كثيرة من الحمى، وهناك حالات عديدة عن أمراض الجهاز التنفسي وحالة نادرة لمرض السرطان (سبنسر وآخرون 2014: 59،66،105،106)(لوحات:5-6).

الأوضاع الصحية لسكان الكوة:

تم حفر ما يقرب عن (70) شخصاً من الجبانة الشرقية لمدينة الكوة المروية. ومن الجلي أنهم عاشوا بالمدينة خلال القرون الأولى الميلادية. هؤلاء الذين تم إكتشافهم يعطون أمثلة للفئات العمرية للسكان من الأطفال وحتى البالغين.ومن خلال التحاليل التي أجريت على الهياكل تبين أن نسبة الأطفال أو البالغين تصل إلي الربع، والآخرون يبدو أنهم توفوا ما بين 20 إلي 50 سنة والقليل منهم وصلوا حتى سن الكهولة(ولسبي وطوني:33) (لوحة:7).

لوحظ أن الإصابة بكسور العظام لدي العديد من البالغين. ولا تظهر الهياكل أي أثر للعنف. إرتبطت هذه الكسور الدائرية الشكل بالجبين والجزء الأعلى من الجمجمة وربما هي نتيجة للنشاط اليومي أو بسبب عنف شخصي(المرجع والصفحة نفسها). وإنتشرت أمراض المفاصل لدي العديد من البالغين. كما ظهرت أمراض مثل الأورام الحميدة للسحايا وتسمي السحائية حيث وجدت دلائلها داخل العديد من الجماجم.والسحائية هي التي تحمي الأغشية حول المخ.وهي تسبب قرابة واحد من كل خمسة من الأورام الأولية للمخ في العالم الحديث. ومعظم هذه السحائية حميدة وليست مهددة للحياة. ويبدو أن الحياة لم تكن سهلة لهم. فبعض الأفراد عانوا من فقر الحمية وسوء التغذية. وأظهرت الأسنان في العديد من الهياكل علامات التفتت مما يشير إلي أن السكر غالباً ما يكون من الفواكة.ولسوء الحظ أن العديد من تيجان الأسنان لم تبق لفترة طويلة بسبب النسبة العالية من تكسر الأسنان التي وجدت عند السكان .وربما كان ذلك بسبب الغذاء الخشن والقطع الحاد مما أدى إلى ظهور خراجات حول الجذور في العديد من الأسنان. وتم التعرف على حالات الإصابة بالجيوب الأنفية أعلى الأسنان.وهذه الإصابات ربما تسببت في حدوث آلام عديدة وأثرت على جودة وأداء الأفراد في الحياة (المرجع نفسه: (33 -34.)

خاتمة:

مما تم إيراده آنفاً، يتضح لنا أن الأوضاع الصحية في السودان القديم كانت سيئة للغاية. فقد إنتشرت أمراض عديد بسبب سوء الأحوال البيئية والصحية. وقد أدي ذلك إلي إرتفاع في نسبة الوفيات للأفراد في سنوات مبكرة لا تتعدى العقد الثالث في كثير من الأحيان.

الهوامش:

(1)الحاكم،أحمد محمد علي و بونيه، شارلس 1997م. كرمة مملكة النوبة: تراث أفريقي من عهد الفراعنة، دار الخرطوم للطباعة، الخرطوم.

(2)اللبدي، عبدالعزيز 2003م. الطب القديم حتى نهاية العصر الحجري الحديث. جامعة القدس، القدس.

(3)سبنسر، نيل وآخرون 2014م. مدينة عمارة غرب، منشورات المتحف البريطاني، لندن.

(4)شوقي، هادية محمد 2002م. الطب والأمراض القديمة في مصر والسودان في الفترات التاريخية. بحث تخرج، غير منشور، قسم الآثار،جامعة الخرطوم.

(5)ولسبي،درك و طوني، دانيال 2014م. مدينة جماتون الفرعونية والكوشية: تاريخ الموقع وآثاره (ترجمة مرتضي بشارة محمد). منشورات المتحف البريطاني، لندن.

(6) Dissi et al 1983. Tell el-Mazar. Study of the human skeletal remains .Annual of the Department of Antiquities of Jordan 27:515-548.

(7)Filler,J.2002.Rescue Excavation in the Gabati Cemetry" In: Uncovering Ancient Sudan(edited by D.welsby and Vivian Davies) :1626-. London.

(8)Miller,E.et al 1996: Accuracy in drybone diagnosis:Commenton Paleopathology International Journal of Osteo-archaeology6,221.229-

(9)Strouhal,E.1998." A contribution to Anthropology and Paleopathology of the BatnElhagar region." Cahier de recherché de Lille .No.177-3:1/.

(10)Welsby, D.2001. Life on the Desert Edge Vo111-. London.

(لوحة: 1) متحف السودان القومي-الخرطوم.

(لوحة:2) المقصورة الأثرية –موقع النقعة ، مملكة مروي.

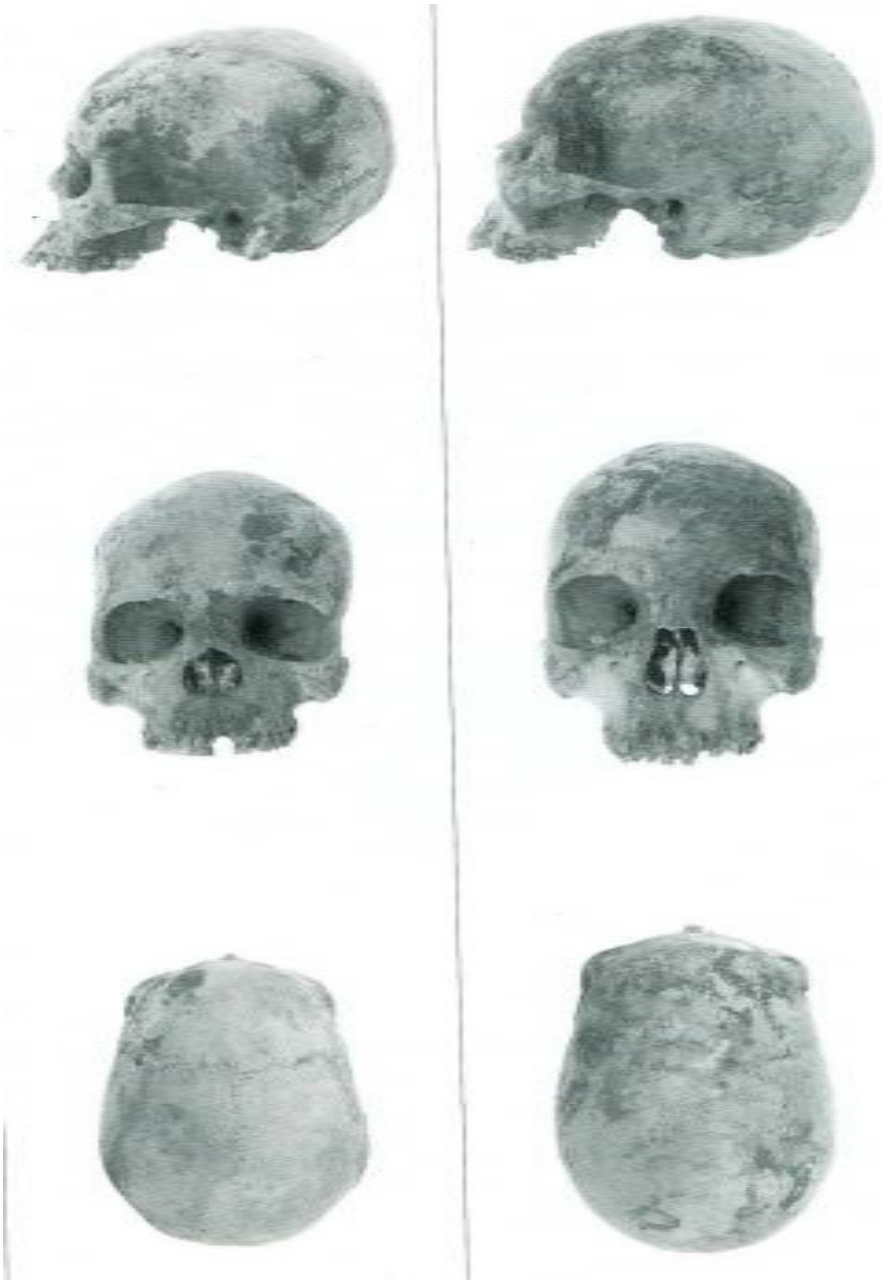

(لوحة:3) جماجم بشرية من موقع كرمة

هـ

(لوحة:4)هيكل عظمي لطفل من موقع قباتي.

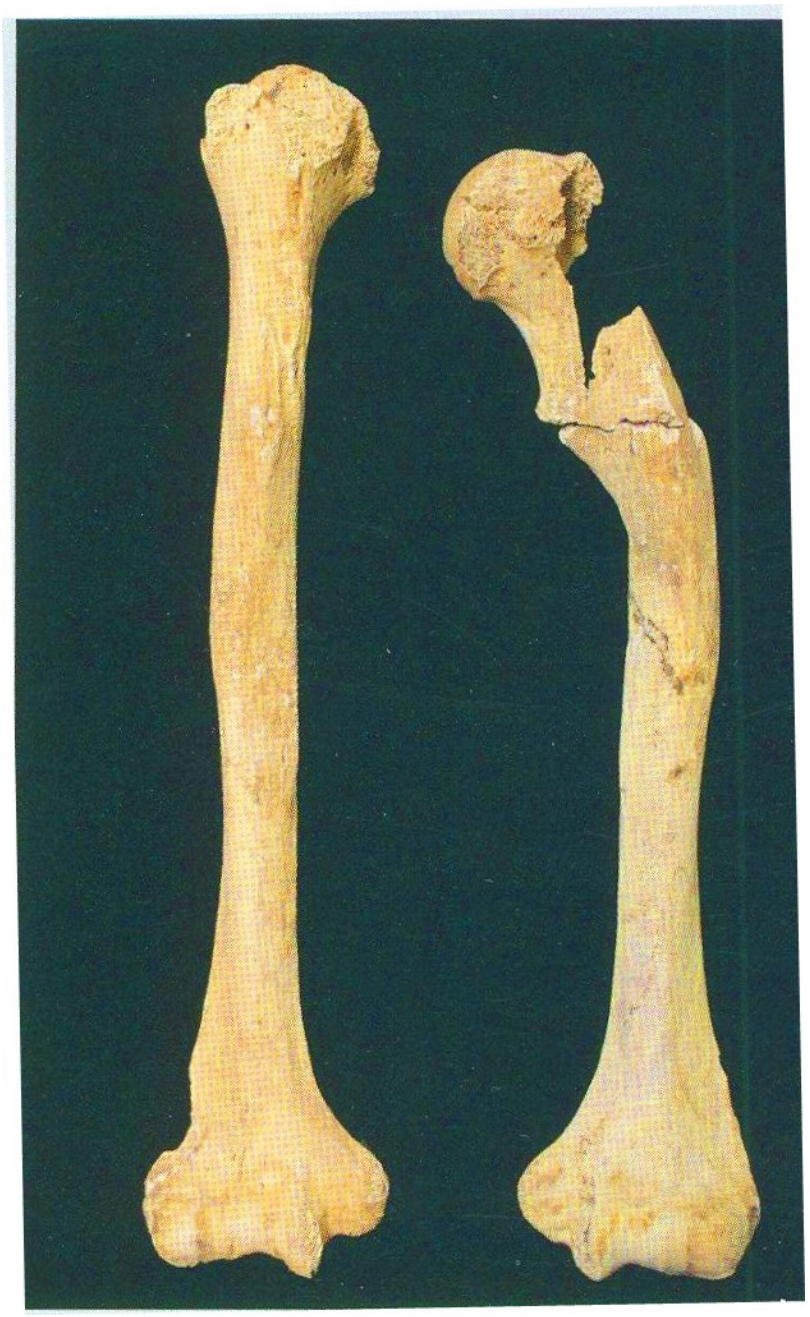

(لوحة:5) عظام محطمة من موقع عمارة غرب.

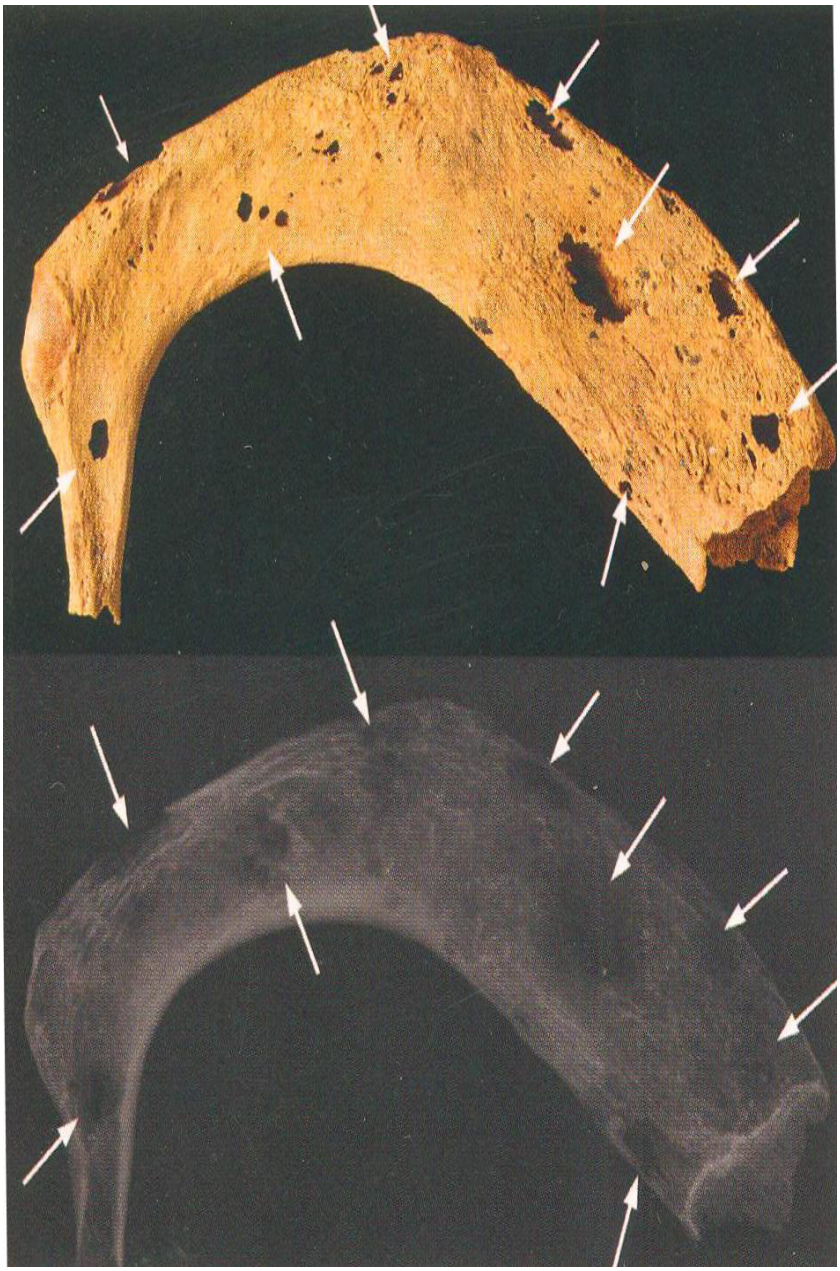

(لوحة:6) ثقوب في العظم من آثار مرض السرطان-موقع عمارة غرب ،

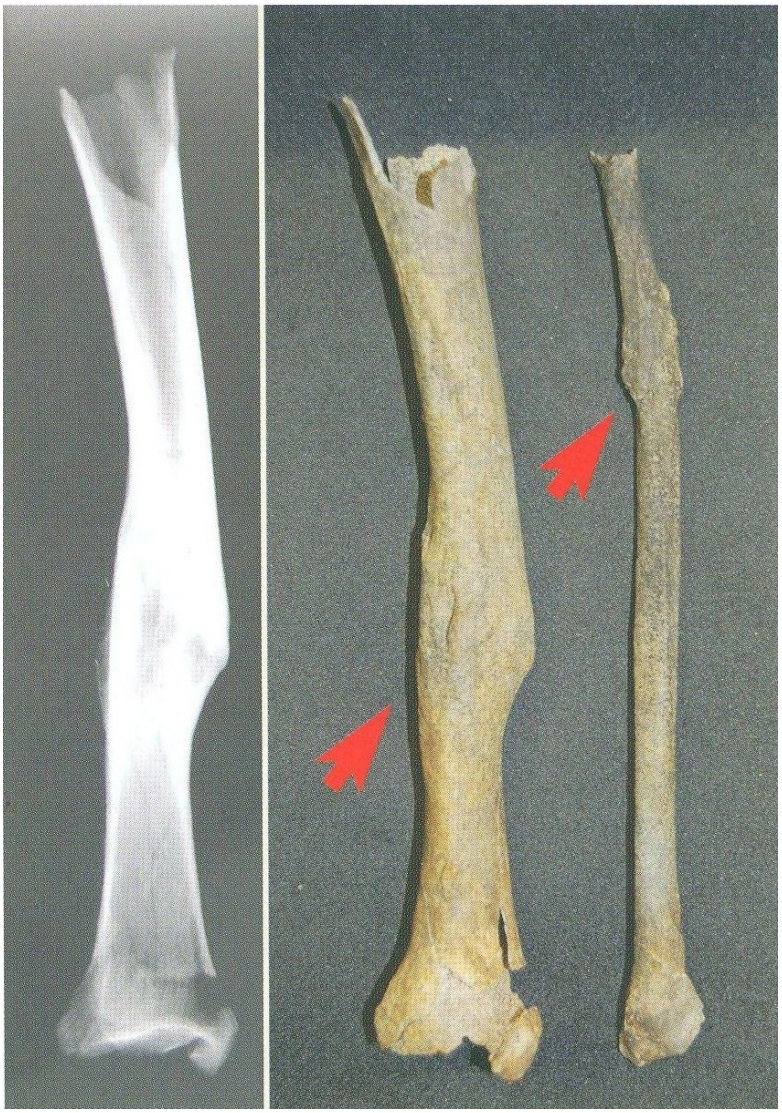

(لوحة:7) كسور ملتئمة لعظم الساق: وصورة أشعة توضح الإلتئام الكامل لعظمة الساق.